تعالى قالتا أتينا طائعين فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول في اللغة التي نزل بها القرآن إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك واللسان والشفتين والأضراس بهواء يصل إلى أذن السامع فيفهم به مرادات القائل فإذ لا شك في هذا فكل من لا لسان له ولا شفتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق فلا يكون منه القول المعهود منا هذا مما لا يشك فيه ذو عقل فإذ هذا هكذا كما قلنا بالعيان فكل قول ورد به نص ولفظ مخبر به عمن ليست هذه صفته فإنه ليس هو القول المعهود عندنا لكنه معنى آخر فإذ هذا كما ذكرنا فبالضرورة قد صح أن معنى قوله تعالى قالتا أتينا طائعين إنما هو الجري على نفاذ حكمه D فيهما وتصريفه لها وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال وإباية كل واحد منها فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك وهذا نص قوله تعالى ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فمن تكلف أو كلف غيره معرفة ابتداء الخلق وأن له مبدئا لا يشبهه البتة فأراد معرفة كيف كان فقد دخل في قوله تعالى وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند ا عظيم إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة إلا وقد جعل فيها تمييزا لما عرض عليها وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها فلما أبتها واشفقت منها سلبها ذلك التمييز وتلك القوة وأسقط عنها تكليف الأمانة هذا ما يقتضيه كلامه D ولا مزيد عندنا على ذلك وأما ما كان بعد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات قال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته فصح أنه لا تبديل لما رتبه ا تعالى مما أجرى عليه خلائقه حاشا ما أحال فيه الرتب والطبائع للأنبياء عليهم السلام فإن اعترضوا أيضا بقول ا تعالى يصف الحجارة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية ا فقد علمنا بالضرورة أن الحجارة لم تؤمر بشريعة ولا بعقل ولا بعث إليها نبي قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فإذ لا شك في هذا فإن القول منه تعالى يخرج على أحد ثلاثة أوجه .

أحدها أن يكون الضمير في قوله تعالى وإن منها لما يهبط رراجع إلى القلوب المذكورة في أول الآية في قوله تعالى ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قساوة الآية فذكر تعالى أن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يوما ما فيهبط عن القسوة إلى اللين من خشية ا تعالى وهذا أمر يشاهد بالعيان فقد تلين القلوب القاسية بلطف ا تعالى ويخشى العاصي وقد أخبر D أن من أهل الكتاب من يؤمن با وما انزل إلينا وما انزل إليهم وكما أخبر تعالى أن من الأعراب من يؤمن با من بعد أن أخبر تعالى أن الأعراب أشد كفرا ونفاقا

وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل ا على رسوله فهذا وجه ظاهر متيقن الصحة .

والوجه الثاني أن الخشية المذكورة في الآية إنما هي التصرف بحكم ا تعالى وجري أقداره كما قلنا في قوله تعالى D حاكيا عن السماء والأرض قالتا أتينا طائعين وقد بين جل وعز ذلك موصولا بهذا اللفظ فقال جل وعز فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء امرها فبين ا تعالى بيانا